التذكار المئوي لاحتلال الجزائر

١٨٣٠ – ١٩٣٠

بقلم الاب جبرائيل لوفنك اليسوعي

ظلّت شواطئ اوربة على البحر المتوسّط قروناً عديدة ترى العداوة كامنة متحفّزة في ما يقابلها من شواطئ افريقية ، حتى ان المراكب الاوربية كانت ، اذا اقتربت من تلك الموانئ ، سارت وَجِلة خائفة حذرَ الالتقاء بمراكب القراصين من البربر .

وانّنا نعجب اليوم لدوام الاضطراب طولَ تلك المدّة ، في المناطق الافريقية وما جاورها من البحر المتوسّط . على انها الحقيقة ، وقد ظلّ الأمن مختلّاً على الرغم ممّا بذله الاوربيون في سبيل اقراره . وذلك لان اعمالهم هذه كانت متقدّمة متناوبة ، ينقصها الثبات والتنسيق . فقد انشأ البرتغاليون مراكز حصينة على الشواطئ المراكشية ، وكذلك قام الاسبانيون بالفتوحات الباهرة على شواطئ الجزائر وتونس ؛ ولكن لم يدم شيء من ذلك مدة طويلة . وفي سنة ١٥٤١ ، اقلع الامبراطور شارلكان ، في ستمائة مركب شراعي ، وجيش لجب ، حتى انتهى الى الجزائر فحاصر مدينتها . الّا ان معاكسة العناصر اجبرته على الرجوع من حيث اتى فترك الحصار ، وظلت الجزائر عاصمة القرصنة ، وموئل لصوص البحار ، وموضوع رعب الامم المتمدنة .

وفي القرن السابع عشر تقدم الفرنساويون الى تلك البلاد ، فدخلها اولاً بعض المرسلين من الكاثوليك ، رجاءَ ان يُعزّوا من فيها من الاسرى النصارى ويهتموا بشؤونهم الروحية . ثم حاصرها العسكر الفرنسوي فصبَّ قنابله

على اسوارها . فكان من انتقام الجزائريين انهم كانوا يضعون في فوهة المدافع كل من وقع تحت ايديهم من المسيحيين . وهكذا هلك الاب لوفاشي (Le Vacher) من اللازاريين ، وكان قنصلاً لدولة فرنسة ، بينا كان احد شرفاء فرنسة ، وهو الضابط دي شوازول بوبري (de Choiseul Beaupré) يقول لآسريه بكل عجب وأنفة : «مهما بالغتم في تشنيع جثتي ، فلن تدفعوني الى ان أفسد عليّ ديني او اجلب العار على أسرتي ! » وكان ذلك سنة ١٦٨٣

ثم اتى عصر فضّل فيه ارباب السماح بالقرصنة على قطع العلاقات مع تلك الجهات ، وكان ذلك عصر الثورة الفرنسوية ، فاقرض امير الجزائر مجلس ادارة فرنسة (*Directoire*) مليوناً دون فائدة ، وسمح لاثنين من يهود ليفورن بنقل كميات الحبوب اللازمة للجمهورية . وان من الغرائب ان تفضي المفاوضات بهذه المسألة ، بعد نصف قرن ، الى دفع الاسطول الفرنسوي الى الهجوم على شواطئ الجزائر .

***

سقطت مدينة الجزائر في يد الفرنسويين في ٥ تموز ١٨٣٠ . فكان ذلك الفتح من اهم الحوادث الحربية . اما اليوم فاننا نراه في ضوء التاريخ من اهم الحوادث العالمية على الاطلاق . وفعلاً فان كانت اهمية انتصار ما بما يعقبه من النتائج الحسنة ، فان فتح الجزائر لاهم من انتصارات فونتنوى ، او مارنغو ، او اوسترلتز ، لان به نشأ شعب جديد على ذاك الشاطئ الافريقي : شعب وطني واوربي معاً .

وعليه فاننا نرى من الحق ان نقوم بواجب الشكر لمن عملوا على تحقيق هذه النشأة الباهرة ، وقد قال اوغست برنار : « ان الملكية المجدّدة في فرنسة لم تقم فقط ، في ارسالها بعثة الجزائر ، بعمل من السياسة الداخلية تقتضيه الظروف الصعبة المحيطة بالوزير پرلينياك ، بل قامت ايضاً بعمل يفرضه الشرف والمصلحة الوطنية . » [1]

---

(١) راجع Aug. Bernard, *L'Algérie, 1929, Alcan, p. 177.*

وقد خلّدت ذكر هـذا الانتصار صحيفة من الرخام وضعت على باب حصن سيدي فرّوش ونُقش فيها:

قضى في ١٤ حزيران ١٨٣٠
باسر الملك شارل العاشر
تحت قيادة الجنرال دي بورمونت
نصب الجيش الفرنسوي اعلامه
فاعاد الحرية للبحار
واعطى الجزائر لفرنسة

هذا تذكار من الحق ان يُحتفل به الاحتفـال الشائق ، لاسيما وانه من النادر ان نرى امة عظيمة تحتفل بمثل هذا الاحتفال.

* * *

كم كان عدد سكان الجزائر الوطنيين سنة ١٨٣٠ ؟ لم يكونوا يتجاوزون المليون الا قليلاً. لان حالة الحرب الدائمة ، وانتياب المجاعات ، وانتشار الأوبئة المتعددة ، كل ذلك كان يجعل من البلاد بقعة مستوخمة. اما اليوم فيبلغ عددهم الخمسة الملايين ، وقد لوحظ انه اعتبارًا من سنة ١٨٧٦ يزداد الوطنيون زيادة عظيمة متتابعة بمعدّل ٢٠٠,٠٠٠ كل خمس سنوات. وذلك نتيجة تحسين شروط الحياة ، بتعداد منشآت الصحة والاسعاف العام وما اليها من الاعمـال الانسانية المزدهرة في ظلّ السلام الفرنساوي . ثم ان الوطنيين يتحققون ان الارض نفسها قد تقدّمت من حيث غنى التربـة وكأنها زادت مساحةً . وعلى الرغم من ان القسم الكبير ، المتجاوز النصف من ارض الجزائر الشماليـة ، لا يزال مواتاً ، فقد زاد خصب الاراضي المزروعة وبلغت مساحتها ثمانية ملايين هكتار . اما هذه الزيادة المهمة فقد ارتكزت على ثلاث عمليات: التوسع بالاراضي المزدرعة ، وتحسين الزراعات القديمة ، وادخال زراعات جديدة. وكان من اجلى مظاهر هذا

التحسن الاقتصادي تقدّم زراعة الكروم ، فقد بلغت مساحتها اليوم ٢٣٨,٠٠٠ هكتار ، ولم تكن تبلغ سنة ١٨٧٩ سوى ٢٠,٠٠٠ هكتار. فبدأ هذا التقدم بتلك الحركة الاقتصادية التي انعشت بلاد الجزائر ونقلتها من العسر الى الرخاء الذي تتنعم به منذ ثلاثين سنة.

وهناك غير الكرم مزروعات مهمة كالتين والزيتون ، وهما الموردان المهمان لاهل القبائل المزدحمين جداً حتى يبلغ عددهم ١٢٣و١٩٨و٢١٨ في الكيلومتر المربع . وان ما تستهلكه العائلة الواحدة من اهل القبائل ، في السنة ، من التين يبلغ ٧٠٠ كيلوغرام ، اما الزيت فمعدل ما يستهلكه الشخص الواحد يبلغ ١٥ ليترًا.

قبل الفتح الفرنساوي كانت الاراضي تفوق حاجة السكان اتساعاً ، لان عدد هؤلاء كان قليلاً ، فضلاً عن انهم كانوا متشتتين في نواحٍ شاسعة لا يفكرون الّا بحرث ما يكفيهم من المساحة القليلة إزاء مساكنهم . وما ذاك الّا لخوفهم الدائم من الغزو وما يليه من نهب وسلب.

وعليه كان عمل الفاتحين مهمًا جدًا اذ صرفوا همتهم الى النهوض ببلاد ما زالت تتدهور في دركات الخمول منذ العهد الروماني ، فأمنوا حياة سكانها ، وحسنوا اقتصادياتها بان جددوا زراعتها وعززوا صناعتها وتجارتها ، فبسطوا امام اهلها كنوز اراضيهم المختلفة الثمينة . فكان من واجب الوطنيين ايضاً ان يحتفلوا مع الفرنساويين بهذا التذكار المئوي.

* * *

على ان الانسان لا يعيش بالخبز وحده . فما كانت قيمة التأثير الاخلاقي والديني الذي اثّره الاوربيون في ذاك الشعب ؟ هو ما سنجتهد في تبيانه:

دخل الفرنساويون الجزائر ، ولا ميل يدفعهم الى مناوأة دين السكان او اخلاقهم او عاداتهم ، فلم يكن دخولهم يشبه في شيء تلك الفتوح القديمة المرتكزة على الجهاد الديني . ولكن كان من طبيعة الحال ان تتقابل المدنيتان وجهاً لوجه بما لكل واحدة من الحقوق والواجبات . على ان الكثيرين من

الفريقين لم يتنبهوا لهذه النقطة ، فتركوا الامور تجري بجراها دون اهتمام او شبه اهتمام بالعلاقات الدينية والاخلاقية. حتى قام كبار الكاثوليكيين واوضحوا ، بكل اخلاص ، افكارهم في هذا الشأن ، فكان لهم فخر المتقدم.

كان عمر الجزائر الفرنساوية عشر سنوات ، اذ وصل اليها سنة ١٨٤١ ، الكاتب الصحافي الشهير لويس ڤيليو (Veuillot) ، وذلك في اول عهد حكومة المارشال بوجو (Bugeaud) . وكان الفرنساويون لم يقوموا بعد بعمل يستحق الذكر ، فكان الامن لا يزال مضطرباً ، والحرب مستعرة على ابواب قسنطينة ووهران ، ومعسكر مليانة محاصراً ، وكان على الانسان ان يسير وراء المدافع حتى يصل بامان من مدينة الجزائر الى بليدة . فكان يتساءل القوم عن نتيجة تلك الحروب وهل يكون فتح الجزائر شيئاً صالحاً او سيئاً. في تلك الظروف الحرجة ، أسس الحبر الاعظم اسقفية الجزائر ، وصرح بانه يريد ان يعيد الى كنيسة افريقية مجدها الغابر. اما ڤيليو فقال: «ان تكن فرنسة قامت بهذا الفتح ، فان ذلك عمل العناية الالهية التي شاءت ان تفتح تلك البلاد لاستقبال كلام الانجيل». ولكن تلك الغاية النبيلة لم تكن بادية للعيان . على ان هذا لم يمنع ڤيليو من متابعة القول : « اننا نعتقد العمل في سبيل تعزيز التجارة والاقتصاد ، بينما نعمل حقيقة في اتمام عمل الصليبيين. وان تجارنا الضعيفي الايمان يتممون جهود اتقياء المسيحيين في القرون الوسطى . فكل ارض حلوها هي أرض تُقام فيها ذبيحة القداس ، ويمتد فيها الاطفال ، ويُنشد فيها القديسون ، مهما كان عددهم ، مدائح الاله العظيم ! »[1]

فترى ان هذه النتيجة الدينية كانت تظهر ضرورية للويس ڤيليو وقد قال: « اذا شئنا ، في فتحنا للجزائر ، ان نؤسس شعباً حيّاً يلزمنا ان نجتهد في ردّ هذا الشعب الى الله. وهذه هي العلامة التي تدلنا على ان الفرنساويين يمكنهم الاحتفاظ بالجزائر ... يستحيل على العرب ان يصيروا لفرنسة الّا اذا صاروا فرنساويين ، ويستحيل عليهم ان يصيروا فرنساويين الّا اذا صاروا مسيحيين ،

(١) راجع Veuillot, *Les Français en Algérie*, 7e édit. Mame, 1867, *introduction*, p. 6.

ويستحيل علينا ان نصيّرهم مسيحيين ان لم نصر نحن ايضاً مسيحيين حقاً.»[1]

وانه لمن العجب ان نسمع الصوت نفسه مرتفعاً من اعماق الصحراء ، بعد ثمانين سنة ، وهو صوت الاب دي فوكو. وبين هذا وذاك ، كان الكردينال لاڤيجري يبذل جهده في اعزاز كنيسة الجزائر وترقيتها.

وكان اول هذا التحسين في سنة ١٨٦٧ ، فزيد في تنظيم الكنيسة بان رُفع اسقف مدينة الجزائر الى درجة رئيس اساقفة ، وانشىء مطرانيتان جديدتان في وَهران ، وقُسنطينة . ثم استلم الادارة الكردينال لاڤيجري فثقب نظره ظلمات المستقبل ، وصرّح لاكليروسه بعيد وصوله قائلاً: «دونكم مستقبل هذه الكنيسة ، ودونكم ما يجب عليكم القيام به ، وما اساعدكم فيه بكل ما عندي من الوسائط ، وان ضعيفة : يجب ان نجعل من ارض الجزائر هذه مهداً لأمة عظيمة ، كريمة ، مسيحية ، وبكلمة اخرى يجب ان نجعل فيها فرنسة جديدة ، فننشر حولنا الانوار الحقيقية لمدنية زاهية يكون الانجيل موردها الصافي وشريعتها السامية.»[2]

واننا نرى ذاك الشعب الجزائري ينشأ ويتألف تدريجياً فيتحقق شيئاً فشيئاً قول الكردينال ، وقول ڤيليو الذي طلب في الجزائر أسراً مسيحية ، وكهنةً اتقياء محترمين.

اما اول من اهتمّ الاهتمام الفعلي المكلّل بالنجاح بتطوّر الشعب فكان المارشال بيجو ، واسمه من اشهر اسماء العظماء في الجزائر. فقد اوجد الجيش الجزائري ، وعزّز الأمن ، وباشر اعمال الاستعمار الحسن ، فكان لذلك طريقان: الرسمي والحرّ[3] . وقد مرّ كلاهما بكثير من العقبات الشديدة ، وما زال يبذل الاوربيون ، من مختلف الشعوب ، جهودهم حتى وصلوا الى درجة حسنة

١) الكتاب نفسه *Op. cit. p. 69*

٢) Baunard, *Le Cardinal Lavigerie*, 2 vol. 1896, Poussielgue ; *t. I, p. 164*

٣) انظر في ما خصّ اعمال الاستعمار الرسمية الابحاث التي قام بها سنة ١٨٩٨ السيد دي پيرينحوف (de Peyerinhoff) والتي نشرها مؤخراً لجنة بيجو ، ومن رأيها مباشرة الاعمال الاستعمارية في اواسط الفلاحين. اما اسم الكتاب فهو:

« *La colonisation officielle de 1871 à 1895*; in-8°, *Paris, Soc. d'édit. géograph.* »

الرسم ٥
فنير جزائري من البربر

عن Abendland und Morgenland

الرسم ٦
امرأة جزائرية
عن Abendland und Morgenland

فتحققوا ، سنة ١٨٩٦ ، ان عدد مواليد الاوربيين في الجزائر زاد على عدد المهاجرين اليها.

اما اليوم فيبلغ عدد الشعب الجزائري الاوربي ، حسب احصاء سنة ١٩٢٦ ، ٨٣٣,٣٥٩ نسمة منهم ٦٥ ٪ فرنساويو الاصل ، و٣٥ ٪ الباقون من الاسبان والمتجنسين بالجنسية الاسبانية من يهود واوربيين ، ثم من الايطاليين ، والمالطيين وغيرهم . وقد قدم اكثر الفرنساويين الجزائر من جنوبي فرنسة من مقاطعات پروڤنسة ، ولانغدوك ، ودوفينية ، ومن كورسيكة . وهم يؤلفون الاكثرية في سكان المدن والقرى . وقد أشير مرات عديدة الى قوة أنسالهم ، وشدة بنياتهم ، لاسيما من كان عائشاً منهم في المزارع . ويرى علماء الاجتماع في هذا الامر افضل ضمانة لمستقبل الشعب الجزائري الفرنسوي ، وهم على صواب في ما يرون.

ومما يجدر بالذكر ان هؤلاء السكان تأثروا بعوامل التبليد العديدة ، وعملت فيهم مظاهر البيئة التي هاجروا اليها ، فغدا لهم مظهر خاص ، وهيئة خاصة ، ونبرة ، وعادات ، وأخلاق خاصة . وكذا القول عن سائر المهاجرين الاوربيين ولاسيما الاسبان واهل مالطة ، حتى اصبح في الجزائر شعب جديد اقوى وانشط واوفر اقداماً وجرأة من اخيه الاوربي.

ينتشر الاسبان ومن اليهم في كل الجزائر تقريباً ، الّا انهم يكثرون في جهة الغرب في مقاطعة وهران التي لا تبعد اكثر من ثماني ساعات بطريق البحر عن مدينة قرطجنة . ولهم من الجرأة والجلد على العمل ، والقناعة في الاكل ، واحتمال تقلبات المناخ ، صفات جليلة تساعدهم في جميع مشاريعهم.

اما الايطاليون فكثيرون في جهة الشرق حول مدينة بونة ، واكثر اعمالهم الملاحة ، والاستخدام في المشاريع المهنة كالبناء والتعدين ، واستخراج الفوسفات . واما المالطيون فلا يستغربون شيئاً في بلاد الجزائر ، ولاكثرهم ميل خاص لتعاطي الاعمال التجارية البسيطة فيفتحون الحوانيت الصغيرة ويتوصلون الى الرخاء لما فيهم من روح الحذق والاقتصاد.

ولكن على الرغم من هذه العناصر المختلفة ، نرى ان المصالح المشتركة

والتزاوج ، والاتحاد في العقليات والاخلاقيات والسياسيات يؤلف بين الجميع ويجعل منهم ، على تباين اصولهم ، شعباً واحداً هو الشعب الجزائري.

على ان هناك ألفةً اخرى يلزم تحقيقها ، وعنصراً آخر يلزم ضمه الى هذه العناصر. الا وهو الشعب الجزائري الوطني من البربر الذي اشرنا ، في اول المقال ، الى زيادة افراده زيادة مطّردة ، والذي يؤلف الاكثرية الساحقة فيبلغ ٨٦٪. وهو عنصر قوي ، جريء ، ذكي ، يقترب في كثير من صفاته ، من فرنساوي المآسيف سنترال (Massif Central).

اما الفرق الجوهري الذي يفصل هذين الشعبين الجزائريين احدهما عن الآخر فهو الدين. يتفق جميع البحاثين على ذلك ، ثم لا يجرب احد معالجة هذه المسألة. وقد قال اوغست برنار : « ان لم يكن متعلقاً بنا ان يترك اهل الجزائر اسلامهم ، فلا ارى من المحال ان نجعلهم من متكلمي اللغة الفرنسوية . »[1] وقالت لجنة بيجو : «ان العمل الجوهري الضروري الذي من شأنه ان يقلب طباع الوطنيين في الجزائر فيقرّبهم منّا ، هو ان ندخل بينهم ، في الاوساط التي لا تزال تحجبها الاشواك والغياض ، عدة الاف من الفلاحين الفرنساويين.» على ان كل هذه الاساليب لا تحلّ تلك المسألة العويصة حلًّا كاملًا . ولا نرى لها حلًّا الا بطريقة واحدة ظهرت في تضاعيف هذا المقال ، وهي الطريقة الكاثوليكية-

(١) A. Bernard, *L'Algérie*, 1929, *Alcan*, p. 382.